**بسم الله الرحمن الرحيم**

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحِجر.

# تأملات في مدلول الحفظ

**أ.د. حسن جاد طبل** (*)

**المقدمة :**

دَرَجَ كثيرٌ من المفسرين(١) عند تناولهم لتلك الآية الكريمة على ترديد القول بأنَّ القرآن الكريم قد سلِم بهذا الحفظ –الذي أكدت الآية تكفل الخالق ﷻ به– من كثيرٍ من الشوائب التي شابت غيره من الكتب السماوية الأخرى، من تغييرٍ وتبديلٍ، أو زيادةٍ ونقصانٍ، أو تناقضٍ واختلافٍ، إلى غير ذلك من الشوائب التي أخبرنا البيان القرآني عن بعضها في قوله:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ البقرة.

أو قوله:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ البقرة.

وفي هذا السياق ذاته يورد القرطبي حكاية عن يهودي حسن الخط دخل الإسلام في عهد المأمون، فلمَّا سأله المأمون عن السر في ذلك قال: "أحببت أن أمتحن الأديان، فعَمَدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخٍ فزدت فيها ونقصت،

---

(*) الأستاذ بقسم البلاغة والنقد الأدبي كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ج٢/٥٤٧، والتفسير الكبير: ج١٩/١٦٤، والإنصاف على هامش الكشاف: ج٢/٣٨٨.

وأدخلتها الكنيسة فاشتُريت مني، وعَمَدَت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخٍ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشتُريت مني، وعمدت إلى القرآن فعمِلت ثلاث نسخٍ وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الورَّاقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رمَوا بها فلم يشتروها، فعلِمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي. قال يحيى بن أكثم: فحججت تلك السَّنة فلقيت سفيان بن عُيَيْنَة، فذكرت له الخبر، فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله ﷻ، قال: قلت: في أي موضع؟، قال: في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: "بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ"، فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال ﷻ:" إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ "، فحفِظه الله ﷻ علينا فلم يَضِع"(١).

والواقع أنَّ فَهم هؤلاء المفسرين للآية الكريمة يحتاج فيما نرى إلى معاودة نظر؛ فنحن بداهة مع ما تداولوه في هذا الصدد من أنَّ حفظ القرآن من أي تغيير، واستعصاءه بذلك على أي تبديل هو إحدى الخصوصيات التي اختُص بها بيانه المحكَم دون غيره من الكتب السماوية، غير أنا لا نُسلِّم في الوقت نفسه بما رتبوه على ذلك من أنَّ الآية الكريمة التي نحن بصددها مسوقة لتأكيد هذا الحفظ، إذ لو كان مقصودها هو حفظ القرآن –في ذاته– من أي تغيير لقيل مثلًا: "وإنَّا إيَّاه لحافظون"، ومغزى ذلك أنَّ الآية الكريمة إذ عدَلت عن مثل هذا التعبير وآثرت دونه "وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ" كانت تعني تأكيد حفظ الله لشيءٍ آخر أو أشياء أخرى غير هذا البيان القرآني في نفسه أو –إن شئنا الدقة– في نصه: بسوره وآياته وحروفه وكلماته!!.

ما هو –إذن– متعلق الحفظ في تلك الآية الكريمة؟.

(١) ينظر: تفسير القرطبي: ج١٠/ ٥ ـ ٦.

للإجابة عن هذا التساؤل نود التوقف قليلًا إزاء التعبير القرآني الذي آثرته الآية في هذا الصدد: "وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ"، وبداية نود ملاحظة أمرين:

(أ) أنَّ ضمير الغَيبة في قوله سبحانه (وإنا له) عائد على الذِّكر الذي هو في هذه الآية بمعنى القرآن، أمَّا (اللام) فهي هنا تفيد فيما نرجح ـ والله أعلم ـ السببية أو التعليل[١]، ومغزى ذلك أنَّ الحفظ المقصود في هذه العبارة ليس حفظًا للقرآن نفسه وإنما هو حفظ لشيءٍ آخر أو أشياء أخرى بسببه أو من أجله.

(ب) أنَّ صيغة اسم الفاعل في هذا التعبير القرآني (لَحَٰفِظُونَ ) لم يُذكَر مفعولها (كما هو مذكور في التعبير الافتراضي البديل: "وإنَّا إيَّاه لحافظون"، فإياه مفعول به مقدم لحافظون، ولعلَّ حذف المفعول هنا –والله أعلم– هو لإفادة معنى العموم؛ كي يشمل الحفظ كل ما علم الخالق سبحانه أنَّه سوف يحيط بالقرآن أو يتماسّ معه كوعاء يحتويه، أو حيز ينزل فيه، أو أي شيء يتعلق به أو يرتبط به ارتباطًا سببيًّا في أي صورة من الصور.

ولعلَّ من نافلة القول أن نشير إلى أنَّه إذا كان المقصود بالحفظ في الآية الكريمة هو –كما رجحنا– حفظ كل ما يلابس القرآن أو يرتبط به فإنَّ في تأكيد نسبته إلى المولى ﷻ تأكيدًا لحفظ القرآن نفسه؛ إذ من المسلم به بداهة أن المحافظة على الوعاء أو الظرف هي بالدرجة الأولى محافظة على المحتوى أو المظروف، وأنَّ الحفاوة بخزينة المجوهرات هي من باب أَولى حفاوة بالمجوهرات نفسها، وأنَّ العناية بإقامة الأسوار وإحكام الحراسة حول قصرٍ ما هي في حقيقة الأمر عناية بساكن هذا القصر!!.

---

(١) يقول المرادي في ذلك: "إنَّ من أشهر معاني هذا الحرف التعليل، قال بعضهم: وهو راجع إلى معنى الاختصاص؛ لأنه إذا قلت: جئتك للإكرام دلت اللام على أنَّ مجيئك مختص بالإكرام إذ كان الإكرام سببه دون غيره فتأمل". ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ص/١٠٩.

وتفصيلًا لهذه النقطة نود فيما يلي أن نتوقف قليلًا إزاء بعض السياقات القرآنية التي أخبرت عن وجود القرآن ووصفت حفظه –أو بالأحرى حفظ وسائل حفظه– في الحالات الثلاث التالية:

أولًا: القرآن في السموات العلا (الملأ الأعلى).

ثانيًا: القرآن في السماء الدنيا.

ثالثًا: القرآن حال تلقي الوحي وبعده.

**أولًا: القرآن في السموات العلا (الملأ الأعلى):**

وذلك في قوله ﷻ: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ البروج.

لقد اختلف القراء في ضبط كلمة (محفوظ)؛ فبينما قرأها نافع وحده بالضم قرأها الباقون بالجر، فهي عند نافع صفة للقرآن، أمَّا عند الباقين فهي صفة للَّوح، وحُجة نافع أنَّ القرآن قد وُصف بالحفظ في آية الحِجر[1] (التي نحن بصددها)، ولعلَّ مما يرجح قراءة الجر فضلًا عن كونها قراءة الجمهور ما سبق أن لاحظناه منذ قليل من أنَّ المقصود بالحفظ ليس هو القرآن نفسه، بل ما يحيط به أو يحتويه، كما يرجحها كذلك أنَّها تفيد ما تفيده قراءة الرفع من وصف القرآن نفسه بالحفظ، غير أنَّها تفيده بطريق الكناية، والكناية كما هو معلوم آكد في إفادة المعنى من التصريح به؛ إذ هي –كما قيل– تأتي بالمعنى مصحوبًا بالدليل عليه، فكأنَّ الآية الكريمة بهذه القراءة تقرر أنَّه إذا كان اللوح الذي يضم القرآن قد وصفه الله بالحفظ فإن ذلك دليل ناصع على أنَّ القرآن في حال وجوده الدائم في الملأ الأعلى في أقصى درجات الحفظ!!.

(١) ينظر كتاب الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي: ج٤/١١٢.

**ثانيًا: القرآن في السماء الدنيا:**

وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الواقعة.

هذه الآيات الكريمة المبدوءة بصيغة القسم من سورة الواقعة تصف الحال الثانية من أحوال القرآن، أي بعد نزوله جملة من الملأ الأعلى إلى السماء الدنيا، وقبل نزول ملك الوحي به منجَّمًا أو مجزَّأً إلى المنزل عليه ﷺ، يقول ابن عباس ﷺ في ذلك: "نزل القرآن في ليلة من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فُرِّق في السنين، وتلا ابن عباس هذه الآية: (فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ)، قال: نزل مفرقًا"(١).

والتساؤل الذي نود طرحه بصدد هذه الآيات هو: ما الكيفية التي حفظ الله ﷻ بها القرآن في هذه المرحلة؟، أو –بتعبير أدق– ما الذي حفظه الله من أجل القرآن خلالها؟.

إنَّ الإجابة عن هذا التساؤل تتحدد ملامحها في ضوء تأمل الآيتين الأخريين في نص الواقعة السابق، وهما:

**(أ) ﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ ﴾:**

ونود أن نبادر بالإشارة إلى أننا لا نطمئن في هذا المقام إلى ما ردده غير واحد من المفسرين من أنَّ المراد بالكتاب المكنون في هذا السياق هو اللَّوح المحفوظ الذي تضمن الإشارة إليه سياق البروج(٢)، ونطمئن في مقابل ذلك إلى أنَّ كلا من السياقين يرصد حالًا للقرآن غير التي يرصدها الآخر، ونستند في هذا الاطمئنان على ما يلي:

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره: ج١/١٦٦.

(٢) ينظر تفسير ابن كثير: ج٤/٢٩٨، وروح المعاني: ج٢٧/١٥٣، ونظم الدرر: ج١١/٢٣٧.

١. المغايرة في وصف القرآن بين السياقين (قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ـ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ)؛ فالمادة المعجمية للوصف الأول (م.ج.د) تدور حول معنى الرفعة والعلو، أمَّا مادة الوصف الثاني (ك.ر.م) فتدور حول معنى العطاء والنفع[١]، وبالتأمل يتبين لنا مدى ملاءمة المادة الأولى لوصف القرآن في (الملأ الأعلى)، وملاءمة المادة الثانية لوصفه في السماء الدنيا التي سوف تنطلق منها فيوضات العطاء بالوحي القرآني!!.

٢. المغايرة بين وصف اللَّوح ووصف الكتاب (فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ـ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ): فكل من الوصفين يفيد تحصين موصوفه لاحتوائه على القرآن، ولكن يبقى بعد ذلك أنَّ بينهما فارقًا يجعل كلًّا منهما ملائمًا لسياقه، فالتحصين الذي يفيده الوصف الأول (مَّحْفُوظٍ) هو التحصين المطلق الذي لا يقيده أي قيد أو استثناء، ومن ثمَّ جاء هذا الوصف آخر لفظ في سورة البروج كي يلائم حال القرآن في وجوده الأزلي الخالد في الملأ الأعلى الذي لا يقربه فيه أحد، ولا تمتد إليه فيه يد؛ أمَّا التحصين الذي يفيده الوصف الثاني (مَّكْنُونٍ) فهو تحصين مقيد بالاستثناء الذي حدَّدته الآية الكريمة التالية له ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الواقعة، ومن ثمَّ جاء هذا الوصف ملائمًا لحال القرآن بعد نزوله إلى السماء الدنيا التي أذن الخالق سبحانه أن يصبح هذا الكتاب الخالد فيها ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ عبس، ولعلَّ مما يؤيد فهمنا لذلك الوصف على هذا النحو ما ذكره الراغب الأصفهاني في تناوله لمادته حيث يقول: "وسميت المرأة المتزوجة (كنّة)؛ لكونها في كنٍّ من حفظ زوجها، كما سميت محصنة؛ لكونها في حصن من حفظ زوجها"[٢]، فتسمية المرأة

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ص/٨٠٦، ٨٥٢، والكليّات: ج/١٢٦/٤، ٢٩٩.

(٢) ينظر: المفردات: ص/٤٤٢.

المتزوجة بهذا الاسم المأخوذ من هذه المادة التي نحن بصددها (ك.ن.ن) راجع كما يبدو جليًّا من كلام الراغب إلى أنَّها تفيد تحصينًا مع استثناء؛ إذ إن هذه المرأة بالزواج أصبحت محصنة من كل الرجال إلا زوجها!!.

وإذا كان الكتاب المكنون في هذا السياق هو -كما رجحنا- غير اللَّوح المحفوظ في سياق البروج فإن مغزى ذلك أنَّ وصفه بكونه مكنونًا يعني أننا إزاء صورة أخرى من صور الحفظ الذي نحن بصدد الكشف عن ظواهره، نعني الحفظ من أجل القرآن، أو -بتعبير آخر- حفظ الظرف من أجل المظروف مبالغة في تأكيد حفظه.

**(ب) ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾:**

أشرنا فيما سبق إلى أنَّ نزول القرآن من الملأ الأعلى إلى السماء الدنيا قد كان تمهيدًا لنزول الوحي به منجَّمًا إلى المنزل عليه ﷺ، وهذا ما يدعونا هنا إلى ترجيح الرأي القائل[١] بأنَّ المقصود بالمطهَّرين في تلك الآية هم الملائكة الذين هيأهم الخالق سبحانه للقيام بحركة الوحي وتحمل أمانته، يقول الإمام مالك في ترجيحه لهذا الرأي: "أحسن ما سمعته في هذه الآية ( لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ) أنَّها بمنزلة قوله ﷻ في عبس وتولى: ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾"[٢].

ونود أن نلاحظ في تلك الآية الكريمة أمرين يتعلقان بما نحن بصدده:

**أولًا:** أنَّ الآية الكريمة لم تصرح بذكر الملائكة، وإنما آثرت التعبير عنهم بواحد من أشهر أوصافهم القرآنية (ٱلْمُطَهَّرُونَ)، وبالتأمل يتبين لنا أنَّ هذا الوصف سواء بمادته المعجمية (ط.هـ.ر)، أو بصيغته الصرفية (اسم المفعول) يوائم أشد المواءمة خصوصية السياق الذي ورد فيه، وكأن الآية الكريمة من خلال إيثارها

(١) ينظر: التفسير الكبير: ج١٩/ ١٩٦، وروح البيان: ج٩/ ٣٣٦، واللباب: ج١٨/ ٤٣٦.
(٢) الموطأ: ج١/١٨٢.

لهذا الوصف تقرر: أنَّ الخالق سبحانه الذي قدر اختصاص ملائكته دون سائر خلقه بمس الكتاب المكنون من أجل الوحي هو ﷻ الذي خلقهم مطهَّرين من كل رجس، منزَّهين عن أي دنس، حتى يظل كتابه –مع مسهم له ومخالطتهم إياه– محفوظًا من كل ما لا يليق به، مصونًا من كل ما يشين.

**ثانيًا:** أنَّ هذه الآية الكريمة قد أفادت اختصاص الملائكة بمس الكتاب المكنون عن طريق أسلوب القصر، ففيها قصر الصفة (مس الكتاب) على الموصوف (المطهرون) عن طريق النفي والاستثناء (لا ـ إلا)، ووظيفة القصر كما يقرر البلاغيون هي المبالغة في تأكيد المعنى المراد أو مضاعفته[1]، أمَّا سبب هذه المبالغة أو المضاعفة في تأدية المعنى فهو –كما يشير الرازي– أنَّ جملة القصر تعد خبرًا بالإثبات والنفي في آن واحد[2]، فجملة القصر بالنفي والاستثناء في قولنا: (لا إله إلا الله) تعد بمثابة جملتين: الأولى: تثبت الألوهية لله (الله إله)، والأخرى تنفيها عن مقابله، أي عمن عداه (غير الله ليس إلهًا).

في ظل هذا الاستطراد –الذي اقتضاه البحث– نود أن نسأل: إذا كانت الآية الكريمة التي نحن بصددها قد أثبتت اختصاص الملائكة بمس الكتاب المكنون فمن هو المقابل الذي أرادت –ضمنًا– نفي هذا المس عنه؟.

الواقع أنَّ في إيثار التعبير عن الملائكة في تلك الآية بالوصف (ٱلْمُطَهَّرُونَ) ما يومئ فيما نرى إلى أنَّ المقابل الذي تؤكد الآية ضمنًا نفي مقاربته للقرآن أو مسّه هم الشياطين؛ إذ هم الموصوفون بما يضاد هذا الوصف من الرجس والدنس، ويدعم هذا الرأي لدينا أنَّ السياقات القرآنية التي أخبرت عن نزول القرآن قد أكدت –في غير موطن– نفي تنزل الشياطين به من مثل قوله سبحانه: ﴿ وَمَا

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ص/١٢٦.

(٢) ينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ص/٣٦٢.

هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ التكوير، وقوله ﷻ: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾ الشعراء.

تبقى الإشارة إلى أنّه إذا كان المولى سبحانه قد تكفل بحفظ الكتاب الذي يحوي القرآن في السماء الدنيا من مس الشياطين، فإنَّه قد تكفل بحفظ السماء الدنيا كلها منهم من أجل القرآن، وذلك قبل بدء نزول هذا القرآن وعند بعثة المصطفى ﷺ، تلك البعثة التي كانت إيذانًا بالحيلولة بين هؤلاء الشياطين وبين ما كانوا قد اعتادوا عليه من قبل من التقاط بعض أخبار تلك السماء عن طريق السمع؛ وذلك ما رصدته بعض السياقات القرآنية[1] التي بدأ أولها نزولًا بقوله ﷻ على لسان مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ الجن.

**ثالثًا: القرآن حال تلقي الوحي وبعده:**

وذلك في قوله تبارك وتعالى في سورة الشعراء: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ... وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ... هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

تصف لنا هذه الآيات من خواتيم سورة الشعراء الحال الثالثة من أحوال القرآن، نعني حال نزول أمين الوحي به من السماء الدنيا إلى المنزل عليه ﷺ، والذي يعنينا فيما نحن بصدده في هذا البحث هو الإشارة إلى أنَّه إذا كنا في كل من السياقين السابقين (البروج ـ الواقعة) إزاء ظرف أو وعاء قد تكفل الخالق سبحانه

(١) انظر تفصيلًا لهذه القصة في كتابنا: "حول الإعجاز البلاغي للقرآن": ص/١٤٤ وما بعدها.

بحفظه لاحتوائه على القرآن (اللّوح في الملأ الأعلى ـ الكتاب في السماء الدنيا) فإننا في هذا السياق الثالث (الشعراء) إزاء ظرفين أو وعائين تعهدهما الخالق ﷻ بالحفظ لهذا السبب ذاته، نعني بهما:

أولًا: قلب المنزل عليه ﷺ.

ثانيًا: اللغة العربية التي أوثرت لهذا النزول.

وتجلية لهذه النقطة نود أن نتوقف –فيما يلي– إزاء تعبير السياق عن كل منهما:

**أولًا: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ...﴿١٩٤﴾ ﴾ الشعراء.**

لقد طرح غير واحد من المفسرين عند تناولهم لتلك الآية الكريمة تساؤلًا مؤداه، لماذا أوثر تقييد فعل النزول بالجار والمجرور (عَلَىٰ قَلْبِكَ) دون (عليك) أو (إليك) في هذا السياق؟.

ومما ذكروه في محاولة الإجابة عن هذا التساؤل:

ـ للدلالة على تعطشه ﷺ إلى الوحي واستغراقه فيه.

ـ لأنه ليس شيء في الإنسان يليق بتلقي الفيض القرآني غير القلب.

ـ للدلالة على حفظ القرآن في ذاته من أدنى تبديل أو تغيير؛ لأن القلب محل الوعي والتثبت.

ـ للدلالة على اختصاص نبينا ﷺ بهذه الرتبة العلية والكرامة السَّنِية من بين سائر الأنبياء؛ فإن كتبهم منزلة في الألواح أو الصحف جملة على صورهم لا على قلوبهم!![1].

ولعلَّنا نلاحظ أنَّ هذه الآراء –التي نُسلِّم بها جميعًا– لم تجب إجابة شافية عن التساؤل المطروح؛ إذ بالتأمل يتبين لنا أنها قد ركزت على إبراز وجه الملاءمة أو التناسب بين القلب والوحي، أما لماذا أوثر ذكر القلب في هذا السياق الذي نحن

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ج٧٩/١٢، والتفسير الكبير: ج١٦٦/٢٤.

بصدده دون كثير من السياقات القرآنية التي تخبر مثله عن نزول القرآن، فهذا ما لم يتوقف للإجابة عنه أي رأي من تلك الآراء!!.

وفي تقديري -والله أعلم بمراده- أن في النتائج الثلاث التي أكدها بحث لنا سابق بعنوان "كيف نتلقى القرآن؟" ما يمهد لنا طريق الإجابة عن هذا التساؤل:

ـ تلك النتائج هي:

١. أنَّ الصورة المثلى لتلقي القرآن هي التي يكون قلب المتلقي فيها بمثابة قاعدة الاستقبال في حال الاستماع، وقاعدة الإرسال في حال التلقي.

٢. أنَّ السياقات القرآنية التي ذكر فيها اسم الشيطان تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك علاقة التباين أو التضاد بين أوصاف الشيطان وخصائص القرآن.

٣. أنَّ التحصن من الشيطان -بالاستعاذة بالله منه- عند قراءة القرآن ينبغي أن يبدأ قبل بدء الممارسة الفعلية للقراءة، أي عند مجرد الهمّ بها والعزم عليها، مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ النحل.

لعلَّنا في ضوء هذه النتائج الثلاث نستطيع تحديد وجه الملاءمة بين إيثار ذكر القلب وخصوصية السياق في سورة الشعراء؛ فهذه الآيات الأربع السابقة قد وردت في مقدمة سياق ممتد يتغيَّا تأكيد حقيقة الوحي القرآني(١) ودحض صور المِراء حولها لا سيما ما حاول مشركو مكة ترويجه من أن ما يدّعي محمد أنَّه وحي سماوي ما هو إلا وحي أحد الشياطين الذين ينزلون على الكهان ويلقون إليهم مفترياتهم التي يحاولون بها خداع الناس، ومن ثَمَّ لم يكتف السياق بتأكيد سماوية التنزيل القرآني ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ الشعراء، وإنما أتبعه -بعد ذلك بآيات- تنفي أدنى تعلق للشياطين بهذا التنزيل أو بطريقه ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ

(١) البحر المحيط: ج٧/٤٠، وروح البيان: ج٦/٣٠٦.

لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ الشعراء، ثم أخبرهم في خواتيم الآيات ببعض أوصاف الكهنة الذين تتنزل عليهم الشياطين: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ الشعراء. وكأنه عن طريق هذا الاستفهام المشبع بروح التهكم والسخرية يعرِّض بغباوتهم، إذ كيف استطاعوا في ظل هذه الفرية الحمقاء أن يسووا بين نبي الوحي الذين أطلقوا عليه بأنفسهم وصف "الصادق الأمين" وهؤلاء الكهنة المشهورين لديهم بالكذب، المجبولين على الإثم والافتراء!!.

وإذا كان المحور الذي تلتف حوله عناصر هذا السياق هو (الوحي القرآني وحفظه من الشياطين) فإن لقلب الموحى إليه ﷺ علاقته الوثيقة بهذا المحور (وهذا وجه الملاءمة بين الأمرين فيما نحس)، تلك العلاقة التي يجليها الحديث الصحيح المرويّ عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنَّه –عليه السلام– أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَهُ، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمِّه (يعني ظِئره) فقالوا: إنَّ محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره"[1].

لكأنَّ هذا السياق بإيثاره لذكر القلب يقوض فرية تلقي القرآن عن شيطان من جذورها، فإذا كان الشياطين معزولين عن مجرد سمعه –فضلًا عن التنزل به– قبل النزول، ومعزولين عن مجرد مسّه في موكبه الملائكي عند النزول، فإنهم كذلك معزولون عن مجرد مقاربته بعد النزول؛ لأن المتكفل بحفظه سبحانه قد قدَّر نزوله على قلب الموحى إليه ﷺ، أي على ذلك القلب الذي هيأ له ﷻ من قبل أسباب الحفظ من الشياطين تهيئة واستعدادًا لهذا النزول!!.

(١) صحيح مسلم: حديث رقم: ٢٦٠، ج١/٣٩٥.

**ثانيًا: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ الشعراء.**

بداية نود أن نسأل: بم يتعلق الجار والمجرور في قوله ﷻ: (بِلِسَانٍ)؟.

لقد ذكر غير واحد من الفسرين[١] في إجابتهم عن هذا التساؤل رأيين:

**الأول:** أنهما يتعلقان بلفظة (ٱلْمُنذِرِينَ) في الآية السابقة، والمعنى لتكون من الأنبياء الذين أنذروا أقوامهم باللغة العربية، وهم خمسة: هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد عليهم السلام.

**والثاني:** أنهما يتعلقان بالفعل (نَزَلَ ) في الآية قبل السابقة، والمعنى أنزل الله عليك القرآن بلسانك ولسانهم العربي؛ لأنه لو نزله بغير العربية لقالوا ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به.

والرأي الثاني هو ما رجحه كثير من هؤلاء المفسرين[٢]، وهو كذلك ما نرجحه لقوة ملاءمته للسياق الذي نحن بصدده، وتجلية لذلك نود الإشارة إلى ما يلي:

١. أنَّنا لو سلّمنا طبقًا للرأي الأول بأنَّ (ٱلْمُنذِرِينَ) هو متعلق الجار والمجرور (بِلِسَانٍ) لسلّمنا بأنَّ المعنى المراد من إنزال القرآن بلسان عربي هو -فحسب- إلحاق محمد ﷺ بقائمة الأنبياء الذين خاطبوا أقوامهم بهذا اللسان العربي، وهذا ما لا علاقة له بذلك السياق الذي نحن بصدده الموجه كما أسلفنا لتأكيد حقيقة الوحي القرآني وتقويض مزاعم المشركين حولها!!.

٢. أنَّ (الباء) كما ذكر مرجحو الرأي الثاني تفيد معنى الملابسة، ومؤدى ذلك أنَّ المعنى المراد هو أن القرآن قد نزل متلبسًا باللغة العربية ساريًا فيما آثره بيانه الخالد من ألفاظها وأبنيتها وتراكيبها سريان الروح في الجسد الحي، وهذا يساير الرأي الراجح في الكيفية التي نزل بها الوحي على نبينا ﷺ، وأنَّه قد

(١) ينظر: البحر المحيط: ج٧/٤٠، وروح البيان: ج٦/٣٠٥، ومجمع البيان: ج٥/١٨٤.

(٢) السابق نفسه.

تلقى عن طريق الوحي الألفاظ والمعاني نفسها التي تلقاها جبريل من السماء، وليس صحيحًا ما قيل من أنَّ جبريل تلقى المعاني القرآنية وعبَّر عنها بالألفاظ العربية، أو أنَّه أنزل على الرسول ﷺ المعاني ثم عبَّر الرسول ﷺ عنها باللغة العربية؛ إذ كيف يصح القول بأنَّ أحدهما (جبريل ـ الرسول) قد تلقى معاني مجردة من الألفاظ مع أنَّ الآية التي نحن بصددها تنص على أنَّ النزول إنما هو (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ)؟!!.

٣. أنَّ في تقييد نزول القرآن بكونه (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ) فيه تقريع لمشركي مكة الذين حفل السياق بالرد على تشكيكهم في حقيقة الوحي وطعنهم في سماويّة التنزيل، وترويجهم أنَّ القرآن محض افتراء أو (قول بشر)؛ فهذا القرآن لم ينزل بلغة أخرى غير لغتهم التي هم ذوو اللسن والفصاحة فيها؛ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا عجزوا –عند تحديه لهم بذلك– عن الإتيان لا بمثله بل بأقصر سورة من مثله؟!!.

ونود هنا أن نبادر بالإشارة إلى أنَّه إذا كان القرآن –كما تصرح الآية الكريمة– قد نزل به الوحي متلبسًا باللغة العربية فإن مغزى ذلك أن تلك اللغة هي أحد الأوعية أو –إن شئنا الدقة– آخر الأوعية التي احتوت القرآن وتعهد الخالق ﷻ بحفظها من أجله في قوله سبحانه ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ الحِجر، شأنها في ذلك شأن اللَّوح المحفوظ في الملأ الأعلى والكتاب المكنون في السماء الدنيا، ولعلَّ أبرز ما يشار إليه من مظاهر هذا الحفظ هو بقاء هذه اللّغة حتى يومنا هذا حيّة تتداولها الألسن وتؤلف بها المؤلفات متحدية معاول الهدم من أعدائها ومظاهر التقصير والجحود من أبنائها، دون أن تندثر أو تنحصر في أروقة دور العبادة، كما اندثرت أو انحصرت كثير من اللغات التي كانت نابضة بالحياة مثلها وقت نزول هذا البيان القرآني الخالد!!.

غير أننا إذ نقرر هنا أنَّ اللغة العربية هي مما تكفل الله بحفظه من أجل القرآن لا نعني أن هذا الحفظ قد بدأ منذ نزول الوحي القرآني، وإنما الذي نعنيه أنَّ الخالق سبحانه الذي قدر تشريف هذه اللغة باحتواء القرآن هو الذي قدر لها مقومات البقاء منذ بدء مسيرتها في التاريخ، فهيأ فيها من السمات وأكسبها من الخصائص ما ميزها من سائر اللغات التي واكبت مسيرتها في بعض الحقب، وجعلها دون هذه اللغات الأكثر قابلية للتطور والنماء، والأقدر على البقاء ومواكبة المستجدات، والأجدر بحمل رسالة هذا البيان القرآني المعجز الذي لا ينفد عطاؤه على تعاقب القرون وتتابع العصور، ولا يتسع مقام هذا البحث لسوق كثير من الشواهد أو الأدلة، وبحسبنا هنا أن نجتزئ بعض ما كتبه عبَّاس محمود العقاد في هذا الصدد: حيث يقول: "بدأت اللغة العربية تاريخها المعروف بخصائصها المميزة لها اليوم في عصر سابق للدعوة الإسلامية يرده علماء المقارنة بين اللغات إلى القرن الرابع قبل الهجرة... فلا بد من أجيال طويلة تمضي قبل أن ينتهي تطور اللغة إلى هذه التفرقة الدقيقة بين أحكام الإعراب، أو بين أوزان الجمع والمثنى، وجموع الكثرة والقلة... إلخ، ولكن هذه اللغة -على قِدمها- تتجدد لها مزايا متعددة كلّما تقدمت الدراسات الحديثة في العلوم اللسانية والصوتية، ويرجع الباحثون إلى خصائصها فيكشفون جانب المزية فيها، وجانب الرجحان منها على غيرها"(١).

ولا يفوتنا هنا أن نلاحظ أنَّ الوصف الذي وصف به اللسان العربي في هذه الآية (مُّبِينٍ) هو الوصف نفسه الذي وصف به الكتاب في صدر السورة ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ ﴾ الشعراء، ووصف به القرآن في صدر سورة الحِجر ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ ﴾ الحِجر، فإذا أضفنا إلى ذلك هذا الوصف قد جاء مسبوقًا في الموطنين الأخيرين بكلمة (ءَايَٰتُ) أدركنا أنَّ

(١) اللغة الشاعرة: ص/٥.

الإعجاز القرآني هو بالدرجة الأولى إعجاز لُغوي، وأنه من ثمَّ إعجاز متجدد باق ببقاء هذه اللغة المحفوظة بسبب القرآن!!.

ويبقى في ختام هذا البحث أن نسجل الملحوظات الثلاث التالية:

**الأولى**: أنَّ السياقات القرآنية الثلاثة التي رصدت أحوال القرآن الثلاث (في الملأ الأعلى ـ في السماء الدنيا ـ حال تلقي الوحي) قد نزل الوحي بها على النبي ﷺ بهذا الترتيب؛ فسورة البروج في الترتيب النزولي هي رقم (٢٧)، وسورة الواقعة رقم (٤٦)، وسورة الشعراء رقم (٤٧).

**الثانية**: أنَّ هذه السور الثلاث قد سَبقت نزوليًّا سورة الحِجر المتضمنة لآية الحفظ التي نحن بصددها في هذا البحث ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ فسورة الحِجر في الترتيب النزولي هي رقم (٥٤).

**الثالثة**: أنَّ هذه السياقات الأربعة قد نزلت تباعًا كي تواجه جدلًا حادًّا متصاعدًا –من مشركي مكة– حول حقيقة الوحي القرآني، وأنَّ هذا الجدل قد بلغ ذروة حدته وتصاعده في السياق الأخير –سياق سورة الحِجر– وهذا ما يتجلى بوضوح في قوله ﷻ قبل آية الحفظ مباشرة: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ الحِجر، فنحن نلاحظ في هذه الآيات:

ـ حدة السخرية والاستهزاء، متمثلة في عدولهم عن ندائه باسمه إلى ندائه بـ(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى)، وبناء فعل التنزيل للمجهول (نُزِّلَ) وكأنهم بذلك يقولون: كما تزعم أنه نزل عليك، وأخيرًا تسمية القرآن ذكرًا، ومن معاني الذكر الشرف والسيادة ولكنه في هذا السياق مشبع بروح السخرية والاستهزاء شأنه شأن صفتي الحلم والرشد اللتين وصف بهما قوم شعيب شعيبًا –عليه السلام– حين قالوا له في موقف ساخر مماثل: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ هود.

ـ مواجهته بتهمة الجنون، فقد حكى البيان القرآني في مواطن كثيرة اتهامهم له ﷺ بتلك التهمة، ولكن هذا السياق هو السياق الوحيد الذي وجهوا إليه الخطاب بتلك التهمة مباشرة: (إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ).

ـ تحدّيه بالإتيان بالملائكة، وهو تحدٍّ يحمل في طياته الدلالة على اتهامهم إياه بالكذب في قضية الوحي القرآني، فكأنهم بذلك يقولون له: لو كنت صادقًا فيما تدعيه من نزول الملائكة عليك بالوحي لأتيتنا بالملائكة الذين نشاهدهم ويشهدون لك بذلك.

ـ فإذا أضفنا إلى ذلك أنَّ سياق سورة الحِجر قد حفل بعد ذلك بغير صورة من صور التسلية للرسول ﷺ كما في قوله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الحِجر، وقوله: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ الحِجر، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ الحِجر –أقول: إذا أضفنا ذلك أدركنا مدى العناء الذي كان يجثم على صدره ﷺ في ذلك الموقف الذي يصوره سياق هذه السورة.

لعلَّنا في ضوء هذه الملحوظات الثلاث نستطيع– والله أعلم بمراده– إدراك السر في ترتيب هذه السياقات الأربعة نزوليًّا على هذا النحو (البروج فالواقعة فالشعراء فالحِجر)[1]، فكأنَّ جملة (وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ) قد جاءت في خاتمة هذه

(١) لعلَّ من العجيب الذي ليس قطعًا من قبيل المصادفة أنَّ الترتيب المصحفي لتلك السياقات أو السور هو عكس ترتيبها النزولي تمامًا، فترتيب هذه السور مصحفيًّا هو: (الحِجر ـ الشعراء ـ الواقعة ـ البروج)، ولعلَّ الحكمة من هذا الترتيب ـ والله أعلم بمراده ـ هو تأكيد المعنى المراد في هذه السياقات عن طريق الإجمال ثم التفصيل، فالمسلِم الذي يقبل على القرآن قارئًا أو متدبرًا بحسب هذا الترتيب المصحفي سوف يلتقي أولًا بآية الحجر التي تؤكد له حفظ الله ﷻ لكل ما احتوى القرآن إجمالًا، ثم يلتقي بعد ذلك بالسياقات الثلاثة التالية تباعًا (الشعراء فالواقعة فالبروج) فيتعرف تفصيلًا ما حفظه الله من أجل القرآن =

السياقات كي تكون بمثابة (نتيجة منطقية) لمقدمات ثلاث سبق إعلامه ﷺ بها من قبل، وكأنَّها في هذا الموقف العصيب تهمس في أذنه: إنَّ الخالق الذي نزل عليك الكتاب وتكفل بحفظ كل وعاء احتواه فيما مضى، هو المتكفل سبحانه بحفظه بل بحفظ كل وسائل حفظه فيما يأتي، فطب نفسًا، وقر عينًا، ولا يضق صدرك بما يقولون!!.

"**تم بحمد الله**"،،،،

* * *

=في كل منها، وللتفصيل بعد الإجمال أثره القوي في تأكيد المعنى؛ لأنَّ المعنى ـ كما يقرر البلاغيون ـ إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا أتى كذلك تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم. ( شروح التلخيص: ج٣/٢١٠).